بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والصلاة على سيدنا محمد أفضل الأنبياء والمرسلين،

وبعد،

فهذا خلاصة بحث في الفطرة، كتبته وأودعته في شرحي الكبير على العقيدة الطحاوية، وها أنا أنشره هنا راجياً أن يكون نافعا للقراء، وأدعو الله تعالى أن ينفعني به في الآخرة، إنه هو الكريم الرحيم.

أولاً: الفطرة والميثاق والصبغة

بعض الناس يظنون أن عقائد الدين يمكن أن يكتسبها الإنسان بلا بحث ولا نظر، ولا تعلم ولا تعليم، ويدعون بعد ذلك أن من فطرة الإنسان أن يكون مسلما، وهذا غلط فلم يرد خبر واحد يدل على أن الدين يمكن أن يسلكه الواحد بل تعلم، ولم يرد أن الفطرة هي عين الدين، نعم وردت بعض الإطلاقات التي يمكن أن تختلط على بعض فيتوهم منها أن الفطرة هي الدين الإسلامي. ولكن فهمه هذا غير سليم.

وسوف نورد الآن بحثا مختصرا عن الفطرة وبعض ما يتعلق بوسائل المعرفة عند الإنسان، كما يليق بهذا الكتاب.

مفهوم الفطرة وأنها ليست عين الدين أعني الإسلام

زعم كثير من الناس أن الفطرة هي الإسلام، واحتجوا على ذلك بالمنقول، فاحتجوا بما روي عن النبي نحو قوله عليه السلام في صحيح البخاري (١/ ٤٥٦) برقم [١٢٩٢] حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب قال ابن شهاب يصلي على كل مولود متوفى وإن كان لغية من أجل أنه ولد على فطرة الإسلام يدعي أبواه الإسلام أو أبوه خاصة وإن كانت أمه على غير

الإسلام إذا استهل صارخا صلى عليه ولا يصلى على من لا يستهل من أجل أنه سقط فإن أبا هريرة رضي الله عنه كان يحدث قال النبي صلى الله عليه وسلم ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه (فطرة الله التي فطر الناس عليها)الآية

وفي صحيح البخاري(١/ ٤٥٦) برقم [١٢٩٣] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه] فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم

وفي صحيح البخاري (٦/ ٢٤٣٤) برقم[٦٢٢٦] عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه كما تنتجون البهيمة هل تجدون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها قالوا يا رسول الله أفرأيت من يموت وهو صغير قال الله أعلم بما كانوا عاملين

وفي صحيح البخاري (٤/ ١٧٩٢) برقم [٤٤٩٧] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ثم يقول (**فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٠**)الروم

مناقشة الاستدلال:

إن قصدوا أن الفطرة هي عين الإسلام، ونحن نعرف أن الإسلام هو عبارة عن مجموعة من الأحكام والمفاهيم والتعاليم التي أنزلها الله تعالى إلى نبيه عليه السلام. فإن قالوا إن هذه

هي الفطرة التي يقصدونها وأنها عين الإسلام بهذا المعنى. فقولهم لا دليل عليه من هذا الحديث.

أما من جهة المنطوق: فلا يوجد في الحديث نص يدل على أن الفطرة هي الإسلام بهذا المعنى.

وأما من جهة المفهوم: فنقول لهم ربما تستدلون على قولكم بقول النبي عليه السلام: ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه؛ أنه لم يذكر الإسلام، ففهمتم أنه أراد أن المولود إن لم يهوده أو يمجسه أو يشركه أو ينصره أبواه، فهو مسلم. فتكون الفطرة هي الإسلام بهذا الفهم.

ولكن هذا الفهم يعتمد على مفهوم المخالفة، بمعنى أنا نثبت لغير المذكور الحكم المنفي عن المذكور. وما نفي عن المذكور هو أن يكون الفطرة، وما لم يذكر هو الإسلام، فيلزم أن يكون الإسلام هو الفطرة.

ولكن هذا الاستدلال غلط محض، فالرسول عليه السلام لم يقل إن الفطرة مضادة أو مناقضة للمذكور، ولو كان الأمر كذلك لما أمكن أن يصير الإنسان نصرانيا أو يهوديا ..الخ، لأن المفروض أن فطرته تخالف مخالفة تضاد ما ذكره، لأنه يستحيل أن يجتمع النقيضان أو المتضادان في محل واحد. ولكن هذا الكلام باطل، لأنه لو كانت الفطرة هي عين الإسلام لما اجتمع معها النصرانية أو اليهودية أو غير الإسلام. فيلزم أن تكون الفطرة إذن هي أمرا لا هو الإسلام ولا هو النصرانية ولا اليهودية. بل هو أمر ثالث، وهو حالة تكون قبل أن يتخذ الإنسان لنفسه دينا أو قبل أن يصيره غيره متدينا بدين معين.

فالفطرة بناء على الحديث يمكن أن تكون حالة ثالثة غير الإسلام وغير الأديان الأخرة، وليست هي دينا خاصا، بل هي وصف للإنسان، تقبل الإسلام كما تقبل غيره، ولكنه تتوافق أكثر مع الإسلام.

ونحن نقول بذلك لأن الفطرة لو كانت هي الإسلام، لما كلف الإنسان بأن يسلم بعد رشده وتمييزه، لأن الفرض أنه مسلم، ولما حصل خلاف في أولاد المشركين أنهم ما حكمهم، ولما كان الحال ما قبل التمييز مغايرا للحال لما بعده. ولكن جميع ذلك ثابت بالأحاديث:

أما أن الإنسان بعد رشده يؤمر بالإسلام فهو لا يحتاج إلى دليل.

وأما أن أولاد المشركين حصل فيهم خلاف، فلما رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين (٢/ ١٣٣) برقم [٢٥٦٦] عن الأسود بن سريع رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث سرية يوم خيبر فقاتلوا المشركين فأمضى بهم القتل إلى الذرية فلما جاؤوا قال النبي صلى الله عليه وسلم ما حملكم على قتل الذرية فقالوا يا رسول الله إنما كانوا أولاد المشركين قال وهل خياركم إلا أولاد المشركين والذي نفس محمد بيده ما من نسمة تولد إلا على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها

فلم يوافق النبي عليه السلام على قتل أولاد المشركين، واحتج بأن بعض المسلمين كان من أولاد الكفار، والمراد من ذلك، أن يقول لمن قتلهم، وما أدراك أنه هؤلاء لو عاشوا فربما كان منهم مؤمنون كما صار بعضكم مؤمنين. ولم يقل إن هؤلاء الأطفال مؤمنون فعلا ولا مسلمون فعلا، بل قال " ما من نسمة تولد إلا على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها"، ومعلوم أن إعراب اللسان معناه الاختيار بين الكفر والإيمان،ويؤيد ذلك ما ورد في رواية البخاري:" قالوا يا رسول الله أفرأيت من يموت وهو صغير قال الله أعلم بما كانوا عاملين"، وهذا دليل على أنه لم يحكم عليهم بالإسلام وهم صغار ولا بالإيمان، وإن اختار الواحد بين أمرين، فإنه يكون عاريا عنهما، ويكون في حالة ثالثة غيرهما، ولذلك فما قبل (حتى)مغاير لما بعدها، أقصد إن ما قبل (حتى)وهو الفطرة، مغاير لما بعده وهو حالة الإعراب، والتي ورد التعبير عنها في بعض الأخبار بالقول(إما شاكرا وإما كفورا). أي أما الإيمان أو الكفران. فالإيمان والكفر إذن ليس هو عين الفطرة. بل الفطرة هي الخلقة الأصلية التي خلق الله تعالى الناس عليها.

ويؤيد ذلك ما رواه البيهقي في سننه الكبرى (٦/ ٢٠٣) برقم [١١٩٢٣] عن الأسود بن سريع عن النبي صلى الله عليه وسلم قال كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عن نفسه زاد فيه غيره فأبواه يهودانه وينصرانه قال الشافعي في القديم في رواية أبي عبد الرحمن البغدادي عنه قول النبي صلى الله عليه وسلم كل مولود يولد على الفطرة التي فطر الله عليها الخلق فجعلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم يفصحوا بالقول فيختاروا أحد القولين الإيمان أو الكفر لا حكم لهم في أنفسهم إنما الحكم لهم بآبائهم فما كان آباؤهم يوم يولدون فهو بحاله إما مؤمن فعلى إيمانه أو كافر فعلى كفره."اهـ

فلا حكم للصغار في أنفسهم، وإنما لهم حكم إلحاقيٌّ، أي إنهم يلحقون بآبائهم في الحكم.

ويؤيد ذلك ما رواه الإمام أحمد في مسنده(٣/ ٣٥٣)برقم [١٤٨٤٧] عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله النبي صلى الله عليه وسلم كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه فإذا أعرب عنه لسانه (إما شاكرا وإما كفوراً) .

ويعارض أصل استدلالهم ما ورد في رواية أخرى للحديث وفيها ذكر الإسلام مع النصرانية واليهودية وهو ما رواه الإمام مسلم في صحيحه(٤/ ٢٠٤٨)برقم [٢٦٥٨] عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كل إنسان تلده أمه على الفطرة وأبواه بعد يهودانه وينصرانه ويمجسانه فإن كانا مسلمين فمسلم كل إنسان تلده أمه يلكزه الشيطان في حضنيه إلا مريم وابنها

ورواه الإمام البيهقي في سننه الكبرى(٦/ ٢٠٣)برقم[١١٩٢٢] عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كل إنسان تلده أمه على الفطرة أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه فإن كانا مسلمين فمسلم كل إنسان تلده أمه يلكزه الشيطان في حضنيه إلا مريم وابنها رواه مسلم في الصحيح عن قتيبة.

ففي هاتين الروايتين الصحيحتين اللتين لا تخالفان غيرهما فلا شذوذ فيهما ولا مخالفة للقواعد الإسلامية والثابت في القرآن بل موافقتان لذلك كله، إثبات أن الإسلام أيضا، مما يؤثر به الوالدان على الأولاد، شأنه في ذلك كشأن النصرانية واليهودية والمجوسية والشرك. وهذا ما أردنا بقولنا إن الحديث لا دلالة فيه على أن الإسلام هو الفطرة، ولو كان الإسلام هو الفطرة، لما ذكر الإسلام في هذا الحديث مطلقا كأمر مقابل للفطرة أو يأتي بعدها، كأمر عارض عليها من جراء التأثر بالوالدين.

وهذا كله يثبت أن الفطرة ليست هي الإسلام، ولكن نحن نقول، إن الفطرة هي الحالة التي خلق الله تعالى عليها الخلق، واختارها لهم، ثم أنزل الإسلام إلينا لكي نكمل هذه الفطرة نرتقي بها في كمالاتها التي قدرها الله تعالى لها، ويتدرج الواحد في الكمال بمقدار تمسكه بأوامر الله تعالى.

ولذلك قال صاحب تحفة الأحوذي (٨/ ٤٧٣):"قوله طبع يوم طبع كافرا أي خلق يوم خلق كافرا يعني خلق على أنه يختار الكفر فلا ينافي خبر كل مولود يولد على الفطرة إذ المراد بالفطرة استعداد قبول الإسلام وهو لا ينافي كونه شقيا في جبلته"اهـ وهذا القول قاله قبله أعلام الإسلام، وقد نص على ذلك العلامة المناوي في شرح الجامع الصغير، وغيره.

وكل هذا الذي أثبتناه حول الفطرة، يوافق قول الله تعالى (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون)، فهذه هي الفطرة التي فطر الناس عليها، من حيث العلوم الكامنة في النفس الإنسانية، لا علوم حاصلة فيها بالفعل، بل هناك قدرات أودعها الله تعالى في الإنسان، بهذه القدرات يمكن للإنسان أن يتدرج في مراتب العلوم والمعارف، ولذلك فإن عليه أن يشكر الله تعالى أن أقدره على ذلك. وبناء على ذلك لا يصح الاستدلال بنفس مفهوم الفطرة على العلوم والشرائع، بمعنى أن هذه الفطرة هي عين هذه العلوم والشرائع. بل الإنسان مأمور بأن يحقق كمالات فطرته أي خلقته بأن يستعملها فيما خلقها الله تعالى له، فإنه خلق لنا السمع

والأبصار والأفئدة لكي نتعلم، فالموافق للفطرة أن نستعملها، وأما إن قلنا إن هذه العلوم والمعارف مودعة فينا بدون توسط استعمالنا لهذه الأسباب فإن هذا لعمري مخالف للفطرة.

وقد يجوز القول بأن الإسلام موافق للفطرة على معنى أن الأحكام الشرعية توافق الفطرة الإنسانية بما الإنسان مجبول عليه، فالإنسان فيه مثلا حب البحث عن الحقائق العليا من الوجود، وفيه حب التملك وفيه غضب وفيه حب لمنفعته، وفيه حب لأولاده، فهذه كلها من الفطرة، وفيه أيضا صفات أخرى، توجد فيه لا باختياره، بل بخلقته التي خلقه الله تعالى عليها، كما ينبت فيه الشعر مثلا، والأظفار. وغير ذلك. فيمكن أن يتم إطلاق اسم الفطرة على ما يصل به الإنسان من أفعال أو صفات إلى كماله اللائق به وذلك بحسب اكتساب الإنسان، من الجمال معنوي والجمال الظاهري، فيقال هذا من الفطرة أو هذا هو الفطرة، كما أطلق على بعض الخصال أنها من الفطرة . فجاء الإسلام ملاحظا هذه الخلقة للإنسان ولم يهملها ووضع لها من الأحكام ما يجعلها سببا لسعادة الإنسان لا لبؤسه وشقاوته. فيمكن أن يقال من هذا الوجه إن الإسلام هو الفطرة، بمعنى يأخذ بالخلقة التي هي الفطرة إلى أعلى إمكاناتها.

فمن ذلك ما ورد في صحيح البخاري (١/ ٩٧)برقم [٢٤٤] عن البراء بن عازب قال قال النبي صلى الله عليه وسلم إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن ثم قل اللهم أسلمت وجهي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت فإن مت من ليلتك فأنت على الفطرة واجعلهن آخر ما تتكلم به قال فرددتها علي النبي صلى الله عليه وسلم فلما بلغت اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت قلت ورسولك قال لا ونبيك الذي أرسلت

وأيضا في (١/ ٢٧٣)برقم [٧٥٨] حدثنا حفص بن عمر قال حدثنا شعبة عن سليمان قال سمعت زيد بن وهب قال رأى حذيفة رجلا لا يتم الركوع والسجود قال ما صليت ولو مت مت على غير الفطرة التي فطر الله محمدا صلى الله عليه وسلم

وأيضا ما رواه البخاري (٣/ ١٢٤٣)برقم [٣٢١٤] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسري بي رأيت موسى وإذا هو رجل ضرب رجل كأنه من رجال شنوءة ورأيت عيسى فإذا هو رجل ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس وأنا أشبه ولد إبراهيم به ثم أتيت بإناءين في أحدهما لبن وفي الآخر خمر فقال اشرب أيهما شئت فأخذت اللبن فشربته فقيل أخذت الفطرة أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك.

وما رواه في صحيحه (٥/ ٢٢٠٩)برقم [٥٥٥٠] عن أبي هريرة رواية: الفطرة خمس أو خمس من الفطرة الختان والاستحداد ونتف الإبط وتقليم الأظفار وقص الشارب.

وعن ابن عمر رضي الله عنه (٥/ ٢٢٠٩)برقم [٥٥٥١]: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من الفطرة حلق العانة وتقليم الأظفار وقص الشارب.

فأطلق في هذه الأخبار على الدعاء وعلى إتمام الركوع وعلى شرب اللبن وعلى تقليم الأظفار والاستحداد وغيرها اسم الفطرة. فهذه الأفعال إنما أطلق عليها هذا الاسم لا لأن هذه الأمور موجودة أصلا في الإنسان، بل لأنها توافق وصوله إلى الكمال الباطني والظاهري. كالإسلام إنما أنزل إلى الناس ليوصلهم إلى كمالهم ظاهرا وباطنا فأطلق عليه اسم الفطرة.

ومما يطلق عليه اسم الفطرة ما يوافق العقول السليمة، كمن يلتجئ إلى الله تعالى أثناء مواجهته لعاصفة أو إعصار أو مصيبة، فهذا تتحرك نفسه نحو الله تعالى، لأن الكفر غطاء سببه التعالي والعجب بالنفس والجهل، والعناد والتعاظم على الخالق، والاعتداد بالنفس، وفي حال المصائب، تزول كل هذه الموانع، فيصبح الإنسان أقرب إلى إدراك الحق من وجود

الله تعالى وأنه هو المدبر الرازق لا غيره، فيصبح أقرب إلى الاعتراف بذلك (وهذا هو معنى قوله تعالى(أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه).

وإذا ثبت أن الفطرة ليست عبارة عن علوم ولا معارف مركوزة في النفس الإنسانية، فيجب على الإنسان السعي للتعلم واكتساب العقيدة الصحيحة، بما أودع الله تعالى فيه من وسائل لذلك وهي السمع والأبصار والأفئدة، ولا يجوز له الركون إلى نفس ما يسميه البعض بالفطرة ظانين أن هذا الأمر يغني الإنسان عن التعلم والسعي للعلم والمعرفة. فلا يصح أن تكون الفطرة بديلا عن التعلم.

الميثاق:

وقد يقال إن الفطرة هي الميثاق الذي أخذه الله تعالى على بني آدم إذ أخذ من ظهورهم ذرياتهم، وقد ورد في تفسير كثير من السلف أنه هو الإسلام والاعتراف بالله تعالى.

ومن ذلك ما ذكره الطبري في تفسيره (٩/ ١١٢):"حدثني علي بن سهل قال ثنا ضمرة بن ربيعة قال ثنا أبو مسعود عن جويبر قال مات بن للضحاك بن مزاحم بن ستة أيام قال فقال يا جابر إذا أنت وضعت ابني في لحده فأبرز وجهه وحل عنه عقده فإن ابني مجلس ومسؤول ففعلت به الذي أمرني فلما فرغت قلت يرحمك الله عم يُسأل ابنك قال يسأل عن الميثاق الذي أقر به في صلب آدم عليه السلام.

قلت يا أبا القاسم وما هذا الميثاق الذي أقر به في صلب آدم قال ثني ابن عباس أن الله مسح صلب آدم فاستخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة وأخذ منهم الميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا فلن تقوم الساعة حتى يولد من أعطى الميثاق يومئذ فمن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفى به نفعه الميثاق الأول ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يف به لم ينفعه الميثاق الأول ومن مات صغيرا قبل أن يدرك الميثاق الآخر مات على الميثاق الأول على الفطرة."اهـ

وأيضا قال الطبري في تفسيره(٩/ ١١٥):"قال ابن جريج عن مجاهد قال: إن الله لما أخرجهم قال يا عباد الله أجيبوا الله والإجابة الطاعة فقالوا أطعنا اللهم أطعنا اللهم أطعنا اللهم لبيك قال فأعطاها إبراهيم عليه السلام في المناسك لبيك اللهم لبيك.

قال: ضرب متن آدم حين خلقه.

قال وقال ابن عباس خلق آدم ثم أخرج ذريته من ظهره مثل الذر فكلمهم ثم أعادهم في صلبه فليس أحد إلا وقد تكلم فقال ربي الله.

فقال وكل خلق خلق فهو كائن إلى يوم القيامة وهي الفطرة التي فطر الناس عليها."اهـ

ونُقل هذا التفسير عن كثير من المتقدمين، ولكن المعلوم أن هذا الميثاق لا يذكره أحد في الحياة الدنيا، وربما يكشف عنا الغطاء في الآخرة فنتذكر، وما لا نذكره في دنيانا فلا يكلفنا الله تعالى به، وله جل شأنه أن يتفضل علينا بأن يلحقنا بالأصل الذي خلقنا عليه.

الصبغة:

ومنهم من فسر الصبغة الواردة في القرآن في قوله "صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة) بالدين قال ابن جرير الطبري في تفسيره(١/ ٥٧٠):"القول في تأويل قوله تعالى (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون) يعني تعالى ذكره بالصبغة صبغة الإسلام.

وذلك أن النصارى إذا أرادت أن تنصر أطفالهم جعلتهم في ماء لهم تزعم أن ذلك لها تقديس بمنزلة غسل الجنابة لأهل الإسلام وأنه صبغة لهم في النصرانية فقال الله تعالى ذكره إذ قالوا لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه المؤمنين به كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل لهم يا محمد أيها اليهود والنصارى بل اتبعوا ملة إبراهيم صبغة الله التي هي أحسن الصبغ فإنها هي الحنيفية المسلمة ودعوا الشرك بالله والضلال عن محجة هداه." ثم قال:" ولكن على قوله قولوا آمنا بالله إلى قوله ونحن له مسلمون صبغة الله بمعنى آمنا هذا الإيمان فيكون الإيمان حينئذ هو صبغة الله

وبمثل الذي قلنا في تأويل الصبغة قال جماعة من أهل التأويل."اهـ

ثم أسند إلى قتادة أن الصبغة هي الإسلام.

وعبر عنها بعضهم بقوله هي دين الله وروى ذلك عن قتادة وأبي العالية وأبي الربيع ومجاهد وعطية والسدي وابن زيد.

وقال آخرون صبغة الله هي فطرة الله: ونقله عن مجاهد قال: صبغة الله الإسلام فطرة الله التي فطر الناس عليها. وعلى القول بأن الفطرة هي الإسلام فلا اختلاف بين من قال الصبغة هي الفطرة أو قال هي الدين أو الإسلام.

واعلم أن هذا القول لا يختلف مع ما قلناه من تفسير معنى الفطرة كما هو ظاهر. وهم لا يريدون بقولهم الفطرة أو الصبغة هي الإسلام أن الإسلام نفسه مخلوق مع الإنسان، لأن هذا القول لا يقول به أحد، بل يريدون أن خلقة الإنسان لو فكر وقدر لاهتدى وآمن بأن الدين الإسلامي هو الدين الذي تكون به سعادته وهداه وكماله. ولذلك عبر عن الذي لا يؤمن بأنه كمن يغير خلق الشاة وقد كانت سليمة. والله أعلم.

ولا بأس هنا أن ننقل بعض ما قاله العلماء في مفهوم الفطرة كتذييل على ما مضى:

قال العلامة المناوي في شرحه على الجامع الصغير(٥/ ٣٣) في شرح حديث كل مولود يولد على الفطرة:"والمعهود فطرة الله التي خلق الناس عليها من الاستعداد عليها لقبول الدين والنهى للتجلي بالحق وقبول الاستعداد والتأبي عن الباطل والتمييز بين الخطأ والصواب."

ثم قال:"قال الطيبي الفطرة تدل على نوع من الفطر وهو الابتداء والاختراع والمعني بها هنا تمكن الناس من الهدى في أصل الجبلة بالتهيء لقبول الدين فلو ترك عليها استمر على لزومها ولم يفارقها لغيرها لأن هذا الدين حسنه مركوز في النفوس، وإنما يعدل عنه بآفة من الآفات البشرية والتقليد.اهـ

والحاصل أن الإنسان مفطور على التهيؤ للإسلام بالقوة لكن لا بد من تعلمه بالفعل فمن قدر الله كونه من أهل السعادة قيض الل له من يعلمه سبيل الهدى، فصار مهذبا بالفعل-أظنها مهديا بالفعل-، ومن خذله وأشقاه سبب له من يغير فطرته ويثني عزمته، والله سبحانه هو المتصرف في عبيده كيف يشاء، فألهمها فجورها وتقواها."اهـ

وهذا الكلام في غاية التقرير والتحرير، وهو جامع لكل المحاسن التي يمكن أن يقولها إنسان في هذا الباب. ولنكتف به فإن إطالة الكلام بعد تمام البيان فجاجة.

وقد يدعي البعض أن الإنسان بأصل خلقته يكون عالما ببعض المعلومات، ويدعي المجسمة منهم أنه يكون عالما أن الله تعالى في السماء، أو أنه على عرشه جالس، تعالى عما يفترون، وهذا كله هراء، ولا قيمة له، فإن الله تعالى يقول(والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون). ولنا في هذه الآية كلام كثير، واستنباط لمحاسن في أصول الدين عديدة، ولكننا نقتصر ههنا على أصول ذلك مما يتعلق بموضوعنا ويلائم هذا الكتاب.

فنقول:

في الآية الشريفة نصٌّ من الله العليِّ العزيز على أن الإنسان لا يكون عالما بأي شيء حين خروجه من بطن أمه، والدليل على ذلك أن نفى علم أي شيء فقال:لا تعلمون شيئا، ومعلوم أن النكرة في سياق النفي تعمُّ. فلا يجوز لواحد بعد ذلك أن يقول إن الله تعالى قد أودع في نفوسنا بعض المعلومات. لأنَّ الآية نصٌّ في أن لا معلومات فينا عند ولادتنا.

وأيضا، فإن الله تعالى يدلنا على أن خروجنا في هذه الحالة عارين عن العلم والمعرفة، هي حالة نقص، فعرفنا أن العلم حالة كمال، ولذلك فإنه جل شأنه قد خلق لنا الوسائل التي بها يمكننا أن علم، وهي السمع والأبصار والأفئدة، فإن العلم يترتب على هذه الوسائل، ترتبا عاديا بحسب خلق الله تعالى لنا وتقديره لوجودنا.

وكان يمكن أن يخلق فينا ابتداء ما يشاء من معارف وعلوم، أو أن يخلق في بعض خلقه أو في جميعهم بعض المعارف لا عن طريق تلك الوسائل، ولكنه دلنا على أن الطريق المعتادة للعلم إنما هي استعمال تلك الوسائل العادية. فعرفنا أن لا دليل إلا أن يأتينا عن طريقها.

وقد أوجب الله تعالى علينا شكره لأنه أودع فينا من الوسائل التي تعود علينا بالنعم الجليلة من العلوم والمعارف، والشكر يكون في مقابل نعمة كما هو معلوم. ولذلك قال في نهاية الآية(لعلك تشكرون)، أي يجب عليكم شكري بعبادتي كما أمرتكم، وذلك لأنني قد خلقتكم والخالق له على مخلوقيه حق العبادة.

والسمع الوارد ذكره في الآية الكريمة فيه إشارة إلى الأخبار الصادقة، والخبر الصادق ينقسم إلى قسمين

الأول: خبر الرسول المؤيد بالمعجزة. فكل واحد ادعى النبوة وأتى بمعجزة صادقة على ما يقول، فإن خبره يكون صادقا.

والثاني: خبر التواتر، وتفاصيل خبر التواتر مذكورة في علم أصول الفقه.

والأبصار المذكورة في الآية الكريمة فيها إشارة إلى كل ما يمكن الوصول به إلى علم كالتجربة والرؤية وسائر الحواس الخمس، أو ما يقوم مقامها.

أما الأفئدة فإنها بلا شك ولا ريب إشارة إلى العقول والطرق العقلية في الاستدلال. وقد يقول قائل لماذا ذكرت الأفئدة بصيغة الجمع، قلنا: إن طرق الاستدلال متعددة، وكل واحد منها يوصلنا إلى علوم معارف فربما يكون الجمع مبنيا على هذا الملحظ.

فانحصر بذلك وسائل المعرفة في الثلاثة التي ذكرناها، وهي السمع أي الخبر الصادق، والبصر أي الحواس الخمس وما يتركب منها أو معها، والعقل. فكل حكم لم يأتنا عن طريق هذه الوسائل فلا اعتبار له.

فإن قال قائل، فبماذا ثبت الدين الإسلامي عندنا حتى قام حجة في تفاصيله على البشر.

قلنا: إن الإسلام ثبت أنه هو الدين الحق بالمعجزات التي قامت دليلا على نبوة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام. وأيضا بما اشتمل عليه من أدلة داخلية على أنه ستحيل أن يكون من عند البشر، فثبت أنه من عند خالق البشر. وذاك لأنه يشتمل على تعاليم عالية ومعارف لا يمكن للبشر أن يتوصلوا إليها، ونحن كل يوم ما زلنا نكتشف جانبا من جوانب إعجاز القرآن العظيم. وقد عرفنا ذلك كله بالعقل. وأدركنا وجود القرآن بالحس. فثبت أن الشريعة قد ثبتت حجيتها على البشر جميعا بأساليب المعرفة التي تم الإشارة إليها.

كتبه

الفقير إلى الله تعالى

سعيد فودة

وليس لنا إلى غير الله تعالى حاجة ولا مذهب